الجماعات الماركسية المصرية، في الاربعينات، في وطنيتها، وانمّا غرضنا محاولة تفسير التناقض في الخطاب الماركسي في تلك المرحلة، بين مناهضة الجامعة القومية، كجامعة سياسية في النضال ضد الصهيونية باسم الاممية، وبين الاقرار بالقومية اليهودية والاعتراف بالدولة اليهودية ـ باسم الاممية ايضاً ـ فيما بعد.

فتأسيس وقيادة اليهود المصريين والاجانب للجماعات الماركسية المصرية «كان من الطبيعي ان يؤكد فكرة الاممية كبديل عن المفهوم القومي، ما دامت الاممية هي الفكرة الوحيدة التي يمكن ان تضع وجودهم على رأس منظمات مصرية. ان الاممية اصل ثابت في الفكر الماركسي النظري؛ ولكن هذا الاصل النظري اتخذ سمات وظلالاً متنوعة بتنوّع البلاد والبيئات السياسية، واتخذ سمات قومية في الحركات النضالية لعدد من البلاد. ولكنه، في مصر الاربعينات، اتخذ شكلاً اقرب الى الحلول محل الجامع القومي. وبهذا المسلك الفكري، وجّه الاتهام الى الحركات القومية والدينية بالعنصرية والشوفينية، واتهام دعاوى التمصير داخل الحركة الشيوعية بالشوفينية ايضاً. فصارت القومية ـ وهي وعاء النضال ضد الاستعمار ـ تهمة، عانى منها عدد من الشيوعيين المصريين أنفسهم في صراعاتهم التنظيمية ضد الاجانب. وجرت تهمة العنصرية، تمليها النشأة اليهودية لهؤلاء القادة في ظروف صراع اليهود ضد عنصرية النازي في ألمانيا، وفي ظروف تصاعد حركة اليهود العنصرية وهي الصهيونية»(١٢٤).

اذن، كانت قيادة اليهود والاجانب للجماعات الماركسية وراء حلول «الاممية» محل «القومية» كجامعة سياسية، وأساس الادعاء في اتهام الجماعات القومية والدينية بالعنصرية، وسلاح المواجهة ضد ما رآه القادة شوفينية العناصر الماركسية المصرية التي طالبت بتمصير قيادة التنظيمات الماركسية.

بيد ان عنصر القيادة اليهودية والاجنبية للجماعة الماركسية المصرية، وان كان وراء نفي «القومية» في مصر اتساقاً مع فكرة الأممية، فانه لا يفسّر، وحده، اخضاع «الاممية» لصالح فكرة القومية اليهودية والدولة اليهودية في فلسطين. فهناك عنصر ثان، هو «ان مبدأ اخضاع النضال في كل بلد لصالح البروليتاريا العالمية (الاممية)، ارتدى، أكثر من أي وقت مضى، شكل خضوع وثيق لمصالح وتقديرات الوطن الاشتراكي الاول (الاتحاد السوفياتي) وقائده الملهم الذي حقق النصر على الفاشية الدولية (ستالين)»(١٢٥).

كما ان هناك عنصراً ثالثاً، وهو ان القادة الاجانب للتنظيمات الماركسية «استهوتهم نظرية ستالين في المسألة القومية، فنسوا التحليل اللينيني للامبريالية»(١٢٦). وبالتالي، فقد عجزوا، استناداً الى النظرية الستالينية، عن ادراك الغزو اليهودي لفلسطين كشكل اساسي من اشكال الامبريالية في الوطن العربي. وكان ذلك طبيعياً، لأن الاجانب الماركسيين في مصر بدأوا معادين للعداء السامية، كما قال هراري، وتحوّلوا الى الماركسية ليرفعوا شعار الاخاء «الاممي» بين المستعمِر اليهودي والمستعمَر الفلسطيني العربي؛ ثم رأوا في نظرية ستالين في المسألة القومية ما يدعم «الحقوق اليهودية العربية»، متجاهلين طبيعة الصهيونية، كحركة رأسمالية استعمارية.

ولذلك، وكما قال صادق سعد، «ساند كبار اليهود في مصر الماركسيين... غير ان هؤلاء الكبار كانوا يعملون، في الوقت نفسه، في محاولة استغلال النشاط الماركسي بين اليهود كفرس يجري مع الفرق الصهيونية»(١٢٧).